النهضة الزراعية

لحضرة صاحب السعادة محمود توفيق حفناوى بك

المستشار الفنى لوزارة الزراعة

لاسماعيل العظيم فضل إذكاء النهضة المصرية الحديثة التى بعثها جده محمد على الكبير وخبت جذوتها بعد انقضاء حكمه، وقد كان إسماعيل قبل ولايته الحكم يهتم بالزراعة وينهض بها فى مزارعه الخاصة فما إن تولى أمور مصر حتى أضاء بهمته وعبقريته ميادين النشاط الاجتماعى والعمرانى . ولقيت المرافق الزراعية العامة منه كل عناية واهتمام فى نواحيها المختلفة فتقدمت شوطاً كبيراً لا يزال الكثير من آثاره باقياً إلى وقتنا الحاضر .

زاره فى أوائل حكمه مسيو ادمون أحد كبار الأجانب فتحدث إليه إسماعيل فى شئون البلاد الزراعية وأظهر أسفه لتدهور الزراعة، وأرجع ذلك إلى عدم تطبيق الأساليب الزراعية الحديثة، ثم أشار إلى انحطاط القمح المصرى وانخفاض سعره بالقياس إلى القمح الأجنبى وود أن يقف على علاج ناجع لآفات القطن كما أبدى عدم رضائه عن قلة نسبة السكر فى القصب رغم جودة نموه . ثم تساءل عن أنواع النباتات وأصناف الحاصلات الزراعية والماشية التى يمكن أن تنجح فى مصر ليستوردها ويجعلها نواة لعلاج التدهور المطرد فى إنتاجها . بهذا تحدث فى أوائل حكمه فنمّ بذلك عن معرفة دقيقة وخبرة تامة بأهم أسباب ضعف الزراعة المصرية وأشار إلى طرق علاجها الرئيسية وفى الحق إن هذا الحديث دستور للنهوض بالزراعة فى نواحيها المختلفة وهو لا يزال إلى الآن هدفاً لجميع جهود الإصلاح الزراعى .

ومن الواضح أننا فى هذه الكلمة لا يمكن أن تحصى جميع وجوه الإصلاح التى تمت فى عهد إسماعيل وإنما نكتفى بإشارة موجزة لأهم خطواته .

أولا — زيادة مساحة الأراضى .

فى عهده زادت مساحة الأراضى المزروعة زيادة كبيرة فبعد أن كانت نحواً من ٣٫٨٥٦٫٠٠٠ فدان على عهد محمد على الكبير بلغت فى أواخر عهد إسماعيل ٤٫٨١٠٫٠٠٠ فدان أى بزيادة مليون فدان تقريباً أو ما يقرب من ٣٠ ٪ من المساحة الأصلية . وقد أمكن الوصول إلى هذه الزيادة بتوفير وسائل الرى المستديم حيث شقت ترع جديدة وأصلح كثير من الترع القديمة أو حول إلى ترع صيفية كما حدث ذلك فى الترعة الإبراهيمية والترعة الإسماعيلية وكذلك أنشئت طامبات العطف لتيسير رى مديرية البحيرة من فرع رشيد .

ثانياً — زيادة غلة الحاصلات الزراعية وادخال أصناف جديدة منها .

وكان من أثر إصلاح وسائل الرى وزيادة مساحة الأراضى المزروعة وإدخال أصناف جديدة من الحاصلات أن زادت غلة الفدان وبالتالى محصول البلاد زيادة كبيرة عما كانت عليه فى حكم محمد على الكبير فبلغت الزيادة فى القمح والذرة الشامية والذرة الرفيعة ١٦ ٪ وفى الفول والعدس ٨٦ ٪ وفى الأرز ٣٨٨ ٪ وفى القطن ١٣٦٠ ٪ .

وعلى أثر قيام الحرب الأمريكية الأهلية ارتفعت أسعار القطن فوجه عنايته للتوسع فى زراعته وادخال أصناف جديدة منه أمدت الحكومة الزراع ببذورها فزاد إنتاجه حتى بلغت صادراته عام ١٨٦٥ أربعة أمثالها عام ١٨٦١ مع ارتفاع كبير فى الأسعار أغرى الأهالى بالتوسع فى زراعته . وتمشيا مع هذا التطور أدخل إسماعيل فى البلاد الآلات الحديثة لحلج القطن بعد أن كان يحلج بآلات يدوية .

وبانتهاء الحرب الأمريكية الأهلية هبطت أسعار القطن وهبط معها المقدار

المزروع والمصدر منـه حتى وصل عام ١٨٧١ إلى أقل من مليونى قنطار أى ما يزيد قليلا على ثلاثة أمثال الصادرات القطنية عام ١٨٦١ .

وكانت هذه الظاهرة الاقتصادية سبباً فى توجيه نظر إسماعيل إلى ضرورة التوسع فى زراعة محصولات أخرى لتجنيب البلاد مضار الاعتماد على محصول واحد . فتوسع فى زراعة القصب خصوصاً فى الصعيد وأدخل أصنافاً جديدة أوفر محصولا وأعلا نسبة فى السكر فزاد محصول الفدان إلى ثلاثة أمثاله وكان من مستلزمات هـذا التطور إنشاء مصانع جديدة لاستخراج السكر بلغت نفقاتها ٦ر١٠٠ر٠٠٠ جنيه . وكان هذا العمل العظيم أساساً لصناعة كبيرة ما زالت إلى وقتنا الحاضر فى الدرجة الأولى من الأهمية ووضحت قيمتها من الناحيتين الصناعية والتموينية خلال الحرب الحاضرة .

ومما يذكر بهذه المناسبة أن سلطان المغرب طلب من إسماعيل خبيراً فى صناعة السكر فأرسل إليه خبيرين أحدهما مختص فى الطريقة القديمة والثانى فى الطريقة الحديثة لتلك الصناعة .

ثالثاً — العناية بالماشية .

ولقد كان ارتفاع أسعار القطن خلال الحرب الأمريكية الأهليـة ارتفاعاً مغرياً حافزاً الزراع على التوسع فى زراعتـه على حساب الحاصلات الغذائيـة للانسان والحيوان . فنقص عدد الماشية بسبب قلة العلف وانتشار الطاعون وخسرت البلاد بذلك ماشية قيمتها ١٢ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه . فتدارك إسماعيل هذا الخطر الكبير بجهوده الجبارة الموفقة فاستورد الحبوب الغذائية للانسان وعدداً كبيراً من الماشية والأغنام والماعز والخيول والطيور الداجنة من الشام وتركيا وروسيا وغيرها من البلاد الأوربية فأدى ذلك إلى تحسين الماشية وتخليص البلاد من خطر كان يهدد الأهالى والزراعة تهديدا مخيفاً .

رابعاً — إنشاء الحديقة النباتية والبساتين .

وأنشأ إسماعيل حديقة نباتية ومزرعة للتجارب بالجزيرة لاختبار و (أقلمة) النباتات المستوردة من جميع أنحاء العالم من أشجار الفاكهة والأشجار الخشبية ونباتات الزينة والخضر والمحصولات الحقلية مما بلغ عدده نحو مليون نبات فى هذه الحديقة التى أخرجت طائفة ممتازة من البستانيين لم يكن لمصر عهد بمثلهم من قبل . ولا يزال أثرهم باقياً إلى الآن فى بستانى حدائق الجيزة والدقى وغيرهما . وكان لهذه الحديقة أثر ملحوظ فى إحياء فلاحة البساتين التى أهملت بعد حكم محمد على الكبير .

وكذلك بذل إسماعيل مجهوداً عظيما موفقاً فى جعل مصر فى طليعة أمم العالم فى فلاحة البساتين يدل على ذلك حدائق الجيزة (وقد بقى منها الآن حدائق الحيوان الحالية وجزء من حديقة الأورمان) وحدائق الحزيرة (التى بقى منها الآن حدائق الزهرية والأسماك) وحديقة الأزبكية التى زال الكثير من معالمها وحديقة النزهة بالإسكندرية وغيرها . وبلغ ما استعمل فى ردم حدائق الجيزة فى مساحة ٣٠٠ فدان ما يزيد قليلا على خمسة ملايين متر مكعب من طمى النيل .

ولا تزال هذه الحدائق أجمل حدائق مصر بل والشرق الأوسط بالرغم من اقتطاع أجزاء كبيرة منها لأغراض البناء وما تطرق إليها من عدم العناية .

وأنشأ إسماعيل بالجزيرة أول حديقة للحيوان فى مصر وهى التى نقلت فيما بعد إلى حدائق الحيوان الحالية بالجيزة .

ووجه عنايته الخاصة لأشجار الموالح والعنب فأنشأ بالجيزة حديقة الليمون وغرس فيها عدداً كبيراً من أشجار البرتقال الممتاز المستورد من قبرص ، واستورد أصنافاً من العنب المبكر والمتأخر من اليونان وإيطاليا وفرنسا وغيرها .

وأنشأ بقرب الإسكندرية غابة مساحتها ألف فدان واستكثر من أشجار

الظل فى شوارع القاهرة حتى بلغ ما غرس منها ٦٠٠٠٠ شجرة فى عام ١٨٧٨ وأهم أنواعها اللبخ والفيكاس واليوانسيانا والجميز كما أمر بغرس الأشجار على الترع والسكك الزراعية وحول السواقى وبأطراف المزارع وأهمها الصفصاف واللبخ والجميز والأثل والسنط .

خامساً — مقاومة الآفات :

ولم يغفل إسماعيل عن أثر مقاومة الآفات الزراعية فى وقاية المزروعات ورفع مستوى إنتاجها فعمل على مقاومة دودة ورق القطن ودودة اللوز العادية اللتين ظهرتا وقتئذ ، فى زراعات القطن واستعان على هذه المقاومة بمجهود العلماء من مصريين وأجانب داخل البلاد وخارجها .

سادساً — إنشاء مجالس تفتيش الزراعة :

وفوق ذلك أنشأ مجالس بالأقاليم سميت مجالس تفتيش الزراعة ووضع لها دستوراً مفصلا ، منها مجلسان فى الوجه البحرى وثلاثة مجالس فى مصر الوسطى والوجه القبلى . ومهمتها البحث فى الوسائل الكفيلة بتحسين الزراعة وإنمائها وتوزيع مياه الرى .

سابعاً — التعليم الزراعى :

وتمشياً مع هذه النهضة الزراعية أعاد إنشاء مدرسة الزراعة عام ١٨٦٧ العباسية وجعلها تابعة فى إدارتها لمدرسة الطب البيطرى .

ثامناً — الاشتراك فى المعارض الزراعية الدولية :

ولقد كان إسماعيل حريصاً على العناية لمصر الزراعية بالاشتراك فى المعارض الزراعية كمعرض باريس الدولى عام ١٨٦٧ وقد حضره بنفسه ، والمعرض الزراعى الدولى فى كولونيا عام ١٨٧٥ . وكانت معروضات مصر فيه من أهم المعروضات فقد بلغ عددها ٤٤٨ نموذجاً مرتبة فى مجاميع تبعاً لفائدتها

الاقتصادية . وتوثيقاً للروابط العلمية بين مصر والممالك الأخرى أمر بطبع كتالوجات ملونة بصور النباتات والحيوانات التى فى حدائقه مرتبة ترتيباً علميا بأسمائها اللاتينية والفرنسية والعربية .

تاسعاً — العناية بشئون السودان الزراعية :

ولم يغب عن إسماعيل الاهتمام بشئون السودان الزراعية وترقيتها فانتشرت فى عهده الزراعة الحديثة على يد من كان يرسلهم من أعضاء بعثات الاستكشافات النباتية وغيرهم ، وأدخل محصولات مصرية لتجربتها فى أنحاء السودان مثل تجربة القطن القلليني فى بحر الزراف ، وقد أسفر مجهوده عن نجاح كبير أدى إلى التوسع فى زراعته مع توفير مياه الرى وإنشاء محالجين فى كسلا والخرطوم . كما جربت زراعة الدخان فى القضارف فأنتج صنفاً لا يقل جودة عن الدخان التركى ، وزاد محصول البلح بتشجيع زراعة النخيل ، وأنشئت فى دنقلة حقول للتجارب الزراعية .

فإسماعيل العظيم هو الذى وضع دستور النهضة الزراعية فى مصر وسار قدماً فى سبيل تحقيقها ، وما زالت البلاد تسير عليه جملة وتفصيلا لتبلغ بهذه النهضة غايتها وتستكمل رخاءها وسعادتها فى ظل حفيده مليكها المفدى فاروق الأول حفظه الله وحقق فى عهده أمانى مصر من عز ومجد وهناء .